Renaissance project of the Hassan Hanafi

Khalil Al Khalil*

(Received 29 / 8 / 2019. Accepted 20 / 10 / 2019)

□ ABSTRACT □

Arab thinkers disagreed about the nature of Orientalism, and its goal of studies and extensive research of the East since the thirteenth century AD, and differed views and differed from one thinker to another, that the goal of Orientalism is religious, cognitive, political, but the Hassan Hanafi did not shorten Orientalism in these reductions, but wanted Research in Orientalism and work to benefit from it in the service of a revolutionary renaissance, and work to establish a new science called alienation is not anti-Orientalism, but a reading in its aspects, and wanted to use all the possibilities to establish his "Renaissance project" and philosophy at the social and political level, linked to the state of uncertainty in Arab thought M The issue of authenticity and modernity, his project began with a civilized position, establishing a system of values and intellectual and philosophical implications adopted by the project, dividing the Arab trends to the front of the Arab-Islamic heritage and the position of him and the Western expatriate heritage and the position and reality front in all its dimensions, and that it can't live without the cultural heritage And civilizational, and can't be isolated from what is happening around you from the changes that have affected reality at all levels.

* **Master- Faculty of Arts and Humanities- Damascus university- Syria.**

المشروع النهضوي عند حسن حنفي

خليل الخليل*

(تاريخ الإيداع 29 / 8 / 2019. قبل للنشر في 20 / 10 / 2019)

ملخّص

اختلف المفكرين العرب حول تعريف الاستشراق، وهدفه من الدراسات والأبحاث الواسعة للشرق منذ القرن الثالث عشر الميلادي، فتباينت الآراء لديهم واختلفت من مفكر إلى أخر، ذهب البعض إلى أن هدف الاستشراق ديني، والبعض الأخر معرفي، سياسي، إلا أن حسن حنفي يتميز بأنه لم يقصر الاستشراق بتلك الاختزالات، بل أراد البحث في الاستشراق والعمل على الاستفادة منه في خدمة نهضة ثورية، والعمل على تأسيس علم جديد اسماه الاستغراب بحيث لا يكون مضاداً للاستشراق بل قراءة في جوانبه، وأراد توظيف كافة الامكانات لتأسيس "مشروعه النهضوي " وفلسفته على الصعيد الاجتماعي والسياسي، المرتبط بحالة عدم الوضوح في الفكر العربي من قضية الأصالة والمعاصرة، فبدا مشروعه ذو موقف حضاري، مؤسساً لمنظومة قيّم ودلالات فكرية وفلسفية تبنّاها المشروع، مقسماً الاتجاهات العربية إلى جبهة التراث العربي الإسلامي والموقف منه وجبهة التراث الغربي الوافد والموقف منه وجبهة الواقع بكل أبعادها، وانطلاقاً من أنه لا يمكن العيش بدون الموروث الثقافي والحضاري، ولا يمكن أن تنعزل عما يجري حولك من تغيرات أصابت الواقع على كافة الأصعدة.

مقدمة:

* **ماجستير –كلية الاداب والعلوم الانسانية– جامعة دمشق– سورية**

كانت بداية القرن العشرين وأواخر القرن التاسع عشر الارهاصات الاولية لليقظة العربية، بعد تجربة التواصل للمفكرين العرب مع الغرب، والذين أُعجبوا بما توصل إليه الأوروبي من تقدم، هذا الأمر الذي دفع بالمفكر العربي إلى السعي لنهضة تغير واقعه، الذي اثقلته الاستعمارات وحالة التخلف،وعليه فإن السؤال الإشكالي يمكن أن يصاغ على النحو الآتي:

- ماهو المضمون النهضوي لمشروع حنفي ؟

ويشتق من هذا السؤال أسئلة فرعية على النحو الآتي:

- هل قدم الاستغراب شيئاً للعرب والمسلمين؟
- هل كان مشروع حنفي المسار الأمثل للارتقاء بالحالة العربية نحو التقدم؟

أهمية البحث وأهدافه:

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يتناول مسألة من المسائل الهامة في فلسفة السياسة ألا وهي النهضة العربية، إضافةً إلى تناوله لوجهة نظر أحد المفكرين العرب المعاصرين؛ والذي قدم للفكر العربي أراءً وأفكاراً مهمة في مجال الاستفادة من الاستشراق وبناء علم الاستغراب، وكان له الدور البارز في تطوير هذا العلم وفي توجيه الدراسات العربية النهضوية وجهةً جديدةً تماماً، فحنفي لم يبحث عن الأسباب العميقة التي أفشلت النهضة، بل درس بل كيف نستقيد من كل ما نملكه من امكانيات سواء تتعلق بالموروث الثقافي أو المعاصر. وتتمثل أهداف هذا البحث في كونه محاولة لتبيان دور مشروع النهضة لدى حسن حنفي، ومحاولة الكشف عن الأسس التي قامت عليها مشروعه، وذلك لتوضيح المعيار الذي اعتمده حنفي في توفيقه بين الاتجاهات العربية.

منهجية البحث:

تتداخل الطرق المنهجية في معالجة الإشكالية وبحثها من حيث تنوع الأفكار في البحث، ومن تلك المناهج، المنهج الوصفي في عرض حنفي والمنهج التحليلي بغية معرفة الدلالات والأهداف في أفكاره

ولا يمكن أن نغفل دور المنهج النقدي الذي، هو ضرورةٌ ملحةٌ في البحث بهدف تبيان الإيجابيات من ناحية والسلبيات من ناحية أخرى لمشروع حنفي، ولا يمكن إغفال المنهج التاريخي .

1- الاستشراق وحركة الاستغراب العربي:

مازال العالم منذ الأزل قائم على جدل الثنائيات التي خلقتها الظروف الجغرافية والسياسية المدفوعة بحب السيطرة واكتشاف الآخر وقراءته، وكانت أوائل تلك الثنائيات هي البيزنطية والفارسية، لكن بعد ظهور الإسلام اختلفت الوقائع والأحداث، وأصبح هناك مجرى ومسارات أخرى تكاد تحدث قطيعة تامة مع كل ما سبق، وبدأت معالم ثنائية جديدة تظهر هي الغرب الفرنجة والشرق المسلم، حاملة معها كل أشكال الصراعات من إيديولوجية، حب السيطرة، معرفة الآخر، الأنا والآخر، وهذا ما جعلني أتناول المفكر المصري حسن حنفي الذي وجد نفسه ومثل غيره من المفكرين العرب بين كومة من مخلفات التاريخ التي فرضتها المتغيرات في الثنائية وعلى وجه التحديد مخلفات الاستعمار الأوروبي للمنطقة، تلك المخلفات التي تراوحت بين تحديات فرضت على العالم العربي، الذي وجد نفسه الحلقة التي تكاد معدومة على كافة الأصعدة التي تجد فيها أي دولة او إقليم سبباً لتقدمها، ولعل أهم حلقات التواصل بين الغرب والشرق كان الاستشراق، فهو اتجاه فكري للتعامل مع الشرق وفق رؤية منهجية، حملت معها أبعاداً واهدافاً، تنوعت

وتمثلت حسب الأحداث التاريخية، فالحروب الصليبية بقيت عالقة في النفوس الأوروبية، مما دفعها إلى السعي وراء قراءة الشرق ومعرفة القوة الروحية الكامنة في نفوسهم، ولا أقول أنها هي السبب الوحيد، ولكنها سبب من جملة أسباب، لذلك وفي البداية فإن الجانب المعرفي قد طغى على الاستشراق مدفوعاً ببعدٍ ديني سعى إلى قراءة الشرق قراءة عميقة؛ بحيث يُمكنهم من معرفة المجهول الشرقي.

وهو كما عبر عنه حنفي " دراسة للحضارة الإسلامية من باحثين ينتمون إلى حضارات اخرى، ولهم بناء شعوري مخالف لبناء الحضارة التي يدرسونها"[1] ونلاحظ من هذا التعريف الذي قدمه حنفي أنه ينطوي على جملة تساؤلات تأخذ بنا إلى أفق واسعة من الاستفسارات المحتاجة إلى توضيح وأهمها: هل أفادنا الاستشراق بشيء؟ وكيف تعامل معه حسن حنفي؟

بدايةً يجب أن يكون واضحاً لنا أننا لسنا بصدد بتفكيك بنية الاستشراق والولوج أكثر في بنيته، لكن أردت أن تكون نقطة انطلاقنا للبحث في ماهية فكر حسن حنفي ومشروعه الذي توصل إليه، فإذا كان الاستشراق هو ردة فعل لما لحق بالأوروبيين بعد طردهم من فلسطين، أو حب الاطلاع، وفهم العقل العربي، فإن حنفي أراد أن يسير في الاتجاه نفسه وهو أن تكون لدى الفكر العربي ردة فعل على كل ما حدث، وإن كان بالإمكان الاستفادة من كل ما حدث على المستوى المعرفي أو السياسي، فالاستشراق وإن كان قد خدم الهدف السياسي، لكن الجانب المعرفي قد أيقظنا من سبات بدأ منذ القرن السادس عشر ومازلنا نرزح تحته، لذا لا بد من العمل الدؤوب لتأسيس علم نابع من خصوصية العالم العربي ولا يكون في تضاد مع الاستشراق بل يكون قراءة في جوانبه وفي مدارسه وفي تغيير القاعدة القائمة منذ الأزل هم ونحن، وهو الاستغراب وهذا ما يعبر عنه حنفي بالقول "*فمنذ الاستشراق القديم الذي نشا واكتمل في عنفوان المد الاستعماري الأوروبي لجمع أكبر عدد ممكن من المعلومات عن الشعوب المستعمرة، أخذ الغرب دور الأنا الفاعلة مصبحاً ذاتاً واعتبر اللاغرب هو الآخر فأصبح موضوعاً...يعني رؤية الأنا الأوروبي للأخر اللاأوروبي، علاقة الدارس بالموضوع المدروس*"[2] وانطلاقاً من اطلاعي الواسع على الدراسات الاستشراقية، فإن الصورة التي كانت سائدة في فترتها هي غرب متقدم وشرق متأخر الأول يجد في نفسه ذاتاً لها قوتها العسكرية والثقافية، والآخر ليس إلا موضوعاً لحقل تجارب، وهذا ما تعزز لدي أكثر عند الاطلاع على ما قاله إدوارد سعيد الذي اختزل الاستشراق في مكامن عدة تجلت في أن حب السيطرة هو ما دفع الغرب للزحف نحو الشرق وإنه لم يكن ليصنع العلاقة مع الآخر إلا أن ينتج شرقاً مهجناً أقل منه، وبنظرة استعلائية.

هذا الأمر آثار واستفز المفكر العربي حنفي الذي اثقله الواقع العربي، فسعى لأن تكون هناك ردة فعل عربية لكل ما قيل وما سيقال، وحددها بالاستغراب وهو " الوجه الآخر والمقابل والنقيض من الاستشراق فاذا كان الاستشراق هو رؤية الانا الشرق من خلال الغرب، يهدف علم الاستغراب .. إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر، والجدل بين مركب النقص عند الأنا ومركب العظمة عند الآخر....هو قلب الموازين في أن تتحول الأنا الأوروبي الدارس بالأمس إلى موضوع مدروس اليوم، وبالتالي تحول جدل الأنا والآخر من جدل الغرب واللاغرب إلى جدل اللاغرب والغرب"[3]. فإننا نجد وراء كلامه هذا مكامن عدة سعى لها حنفي هي أن تحدث التغيير وأن نتجاوز فكرة إنه الغرب ولبيس بعده شيء، لأن أي تقدم هو عبارة عن انتقال من طور إلى أخر نحو التغيير، لذا فإن الكل لا بد له من

[1] حنفي، حسن، في الفكر العربي المعاصر، ص 12-13.
[2] حنفي، حسن، مقدمة في علم الاستغراب" التراث والتجديد وموقفنا من التراث الغربي"، ص29.
[3] نفس المصدر، نفس الصفحة.

المرور بتلك المراحل من التأخر حتى يصل إلى التقدم، والسؤال الذي يفرض نفسه على البحث: إلى درجة ممكنه يمكن للاستغراب حل العقدة التاريخية هم ونحن؟

بتصوري إن حنفي سعى لنقل الخطاب السياسي الذي تعودت عليه النفسية العربية إلى مستوى الخطاب العلمي، فالتجربة الأوروبية ليست حالة استثناء فقد كان لها تجاربها مع التخلف الفكري وسيطرة النزعة الدينة على الذات بصورة تكاد تكون ساذجة، ولكن ضرورات التغير وكثرة التفكير بالأنا ومن أنا، وهذه الفكرة الفلسفية البحتة تشكل مساراً ثورياً وتمرداً فكرياً على كل ما سبق، واذا ما نقلنا هذا الكلام على الواقع العربي قد يكون هناك تشابه بالتجربة من حيث أن الاقليمين سواء الغربي أو الشرقي قد مروا في حالة تأخر، وأيضا هناك سعي حثيث للتقدم مع فارق الخصوصية التي تميز كل معسكر منهما، وهنا حنفي يريد الانطلاق من هذه النقطة والتي هي في البداية تحتاج لمعاينة الواقع العربي ما بعد الاستقلال، يكون فيها الاستغراب قد وضع الاستشراق على مشرحة النقد الهداف، وهذا يقودنا إلى مفاهيم عدة متعلقة بما يرغب به حنفي:

2-الهوية العربية بين التغريب والاصالة:

إن الهوية المعيار الأول الذي يحدد بنية أي مجتمع من المجتمعات، ويكون المعيار الاساسي الذي يسير عليه المجتمع في علاقته مع أفراده ومع غيره من المجتمعات الأخرى، هو القدرة على التفكير والتخطيط وتأطير العلاقات والسعي نحو التقدم أو العودة إلى التراث، إنها بشكل أخر الذات الفاعلة والموكلة اليها هموم المجتمع، وهي حسب حنفي حالة ميتافيزيقية، يعرفها أنها" .. خاصة المجتمع والإنسان والفرد والجماعة هي موضوع إنساني، فالإنسان وحده قادر على الانقسام على نفسه ولومها، هو الذي يشعر بالمفارقة أو التعالي أو القسمة بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون بين الواقع والمثال بين الحاضر والماضي بين الحواضر والمستقبل"[1] تشكل السمات التي تتبلور في صورة جمعية تربطها مقومات الأرض، والتاريخ، واللغة، ولكن إلى أي مدى حافظ العالم العربي على هويته؟

لقد خضعت الهويات إلى التطور الديناميكي عبر المراحل التاريخية، وفُرض عليها الكثير من الأزمات التي استهدفتها بغية تغييرها، والهوية العربية قد وجدت نفسها بين كومة صراع الهوياتي، وهو ليس بالغريب عن واقعنا، فالداخل العربي قد بصراعات داخلية على مستوى القبيلة والمكان، ولكن مع الإسلام أصبحنا أمام صراع أخر أوسع وأشمل صراع مع الآخر الغربي والأقصى الشرقي، لقد مررنا بهزائم وانتصارات كلها كانت تستهدف الهوية حتى الحاضر وما زالت مستمرة ولكن" *لا بد لكل ما حدث أن نجعل منها انتصارات، ونكون قادرين على مواجهة ذاتنا، معترفين بالفشل والنجاح محللين عوامل الهزيمة والتأخر*"[2].

بتصوري إن الهويات اليوم تناضل من أجل أن تثبت نفسها بعد أن تداخلت معها العولمة والتقدم السريع، فهي قبل فترة وجيزة كانت تثبت نفسها إما بالاستعمار أو مقاومته لكن اليوم أخذت مسارات أخرى أُضيفت لها هي الاقتصاد، واذا ما أردنا اسقاط هذا على الذات العربية بعد كل ما مرت به يتبادر لنا عدة تساؤلات أين هي الذات العربية؟ ولأي درجة بقيت تتميز بهذا العنوان " الهوية العربية"؟

في البداية إن الهوية العربية قد مرت بظروف لا تعد ولا تحصى وفي كل مرة كانت معرضة للخطر الساعي إن لم يكن إلى طمسها على الأقل التقليل من الشعور بها، ففي مرحلة الاستعمار كانت هناك مساع حثيثة لطمسها بكافة السبل سواء كان عبر فرض لغات غيرها، أو منع تدريس اللغة العربية وبالتالي افتقادها لعنصر مهم ومنع استمرارها.

[1] **حنفي، حسن، الهوية، ص11.**
[2] **القصيبي، غازي، العولمة والهوية الوطنية" مقالات"، 43ص.**

بعد الاستعمار أحس المفكر العربي بضرورة انه لابد من النهوض بها من جديد وتخليصها من كل شائبة أرادت طمسها، وحنفي يجد أن أهم صفاتها قد تلاشت بفعل عوامل داخلية تتعلق بالوسط الإقليمي للمنطقة، لأنها" تتفاعل مع الحرية ...لأنها احساس بالذات والذات حرة ..والحرية قائمة على الهوية لأنها تعبيراً عنها ...والحرية تحرر أي إنها امكانية لأن يكون الانسان حراً ..الهوية امكانية على امكانية"[1].

إن حديث حنفي هو قوة كامنة داخل كل فرد يفكر، ينتج، يقارن، يصنع، يريد أن يستمر بها ويجعل نفسه بمكانه عالية مع باقي الهويات وليس بدرجة دونية تجعله ناقصاً، حيث أن "لمنطق الاصالة والمعاصرة مناهجه وطرق ميادينه"[2]ولكن قد يتساءل البعض: لو عاينا الهوية العربية لوجدنا الكم الهائل من المعوقات التي تعصف بها؟ ويجيب نفسه بأننا نكاد نكون جازمين بمدى الطمس الذي تتعرض من الداخل ومن الخارج.

ووفق رؤية حنفي فإن الهوية اليوم بين واقعين متمايزين هما السياسي والاجتماعي، وهذا ما وضعها أمام خيار ثالث وهو الاغتراب فهي،" تتحول ..إلى اغتراب، يجعل الذات تنقسم على نفسها، وتتحول مما ينبغي أن يكون إلى ما هو كائن ، من امكانية الحرية الداخلية إلى ضرورة الخضوع للظروف التاريخية بعد أن يصاب الإنسان بالإحباط"[3].

إنها تصاب بذلك بعد أن تعجز عن تجاوز معوقاتها، وباعتقادي وبعد اطلاعي على ما كتبه حنفي فإن الذات العربية قد توزعت ما بين علماني وأخر إسلامي وأخر ليبرالي، بعضها نابع من الخصوصية وبعضها تقليد لغيرها، وكل منها تقصي الأخرى متناسية أن ما يجمعها هي الهوية العربية، مما يجعل الإنسان يشعر بالإحباط من فقدان هويته واستجرارها نحو هوية غيرية مختلفة عنها، يعيش واقعين متمايزين ويكاد يضيع في خضم الخيارات ويمكن حصرها بالقول إما البقاء أو الغيرية.

الأولى تصارع من أجل البقاء والثانية هي الآخر، ولكنه متقدم مما يجعل الهوية تعيش مرحلة الاغتراب حسب حنفي، فالهوية عانت من الاغتراب الداخلي أكثر ما عانت من الاغتراب الخارجي وتكاد، *الهوية تصبح حالة مثالية والاغتراب حالة واقعية*[4].

فالتغريب حسب ما نستقرأه من حنفي قد يكون ديني أو تقليد لهويات أخرى وجدت فيها بعض الاتجاهات أنها كما يقول فوكاياما بنهاية التاريخ والإنسان الأخير أن الليبرالية الأمريكية ستسود العالم، مما أثار الاتجاهات بعضها على بعض فاليوم نجد الهوية ضائعة بين صراعاتها ما بين السلفي الذي يجد في التراث المعيار المخلص لكل ما حصل للإقليم، وبعد أن فشل القوميون العرب في الحفاظ على الهوية، وبين علماني' الذي يرى أن تقليد الغرب هو المعيار لنكون قادرين على تجاوز كل ما حصل، حيث إنه برأيي الأول من المبالغ الأخذ بالتراث مساراً، والثاني لا يمكن تقليد الغرب بصورة كلية، مما ينقلنا إلى عنوان أخر.

3- مواقف وتحديات القومية العربية:

بعد الاستقلال بدأت تطفو على سطح الفكر العربي صور نابعة من الأنا والآخر، أفضتها الأصالة والمعاصرة، كانت بداياتها عصر النهضة، فالواقع العربي هو معقد اجتماعياً وسياسياً على عكس بقية الدول التي تحررت من

[1] **المصدر السابق، ص23.**
[2] **حنفي، حسن، قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر،ص53.**
[3] **حنفي، حسن، الهوية، مصدر سابق، ص24.**
[4] **المصدر السابق، ص26.**

الاستعمار، فاذا ما قارنا بين الإقليم العربي والآخر نجد أن الفارق أصبح يتسع أكثر، فهم قد تجاوزوا مرحلة الأصالة والمعاصرة، وقد يتسائل البعض هل التعقيد في الوسط العربي من تنوع عرقي وطائفي والأهم تأثير الدين في نفوسهم هو ما ميزهم عن غيرهم؟ هنا أقول هناك دول في الإقليم مازال الدين يشكل محوراً لسياستها ولكنها استطاعت الاستفادة منه، وليس جعله مشكلة عالقة كما في الوسط العربي، الذي انقسم بشكل اقصائي بين مواقف وقوى وهي حسب حنفي:

1- القوى الاسلامية: التي تعتمد الموروث الثقافي الاصيل وقد جسدتها حركة الإصلاح الديني منذ الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وغيرهم.

2- الليبرالية: وبدا اتصالها مع الغرب الحديث ويحددها حنفي بمئتي عام وكان روادها الطهطاوي، ولطفي السيد، وطه حسين، وكان همهم إنشاء الدولة الوطنية المستقلة القائمة على الدستور والبرلمان وغيرها من الجوانب الاقتصادية.

3- الماركسية: وقد انتقلت إلى المشرق العربي بداية القرن العشرين قبل ظهورها في المغرب العربي وروادها سلامة موسى وعبدالله مناف وغيرهم، وأصبح لها رصيد فكري في قطاع كبير من مفكري المغرب، ورصيد وحركة لدى قطاع عمالي عند المشرق.

4- القومية العربية أو الناصرية أو الاشتراكية العربية والتي جسدتها الثورات العربية.

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام: هل هذه التيارات في متباينة في الطرح متفقة في الهدف؟

على الرغم من كثرة التباين في طروحاتها، ولكن كما نرى وفق رؤية حنفي، هذه التيارات الفكرية والقوى السياسية ليست منفصلة بينها بالرغم من تعارض بعضها إلا أننا نجد *هناك من يجمع بين الإسلام والليبرالية مثل طه حسين وبن باديس، وهناك من جمع بين الإسلام والقومية ...وهناك من جمع بين الليبرالية والماركسية مثل العروي والقومية والليبرالية مثل محمد الرميحي أو الماركسية والقومية مثل محمود امين،*[1] وجميعها تدور في فلك فكرتا التراث والتجديد واللذان، " يعبران عن موقف طبيعي للغاية، فالماضي والحاضر كلاهما معاشان في الشعور، ووصف الشعور هو في نفس الوقت وصف للمخزون النفسي المتراكم من الموروث في تفاعله مع الواقع الحاضر"[2].

الملاحظ من كل هذه التيارات حسب حنفي أن لها جميعاً هدف واحد وهو نقل المجتمع من حالة إلى حال أفضل، فجميعها قدمت برامجها مستندة على جملة معايير بعضها يعود إلى الخصوصية، وأخرى وجدت في الآخر المتمايز نهاية التاريخ، وكانت هناك محاولات حثيثة من المفكر العربي تجاه التغيير ولعل التجربة السورية المصرية، كانت خير دليل لتلك التيارات وصراعاتها، ولكن المشهد الذي عاشه من كان قبلنا وما نعيشه نحن اليوم لا يتعدى الا صورة مقيتة لكل المحاولات، والسبب فشلها ليس لأنها لم تقدم جديد، بل لأنها لم تملك الفرصة للتغير وبقيت أسيرة النزعة السياسية، وأثقلتها فجعلتها تعيش الاغتراب، *ففي هذا العصر الذي نعيش فيه ووسط عديد من التيارات والمذاهب المطروحة يكاد المواطن العربي يفقد عقله حول ما هو مقياس الاختيار وهل الاختيار ممكن اساساً امام خضم الاختيارات التي تعرض عليه من كل اتجاه وتكون المحصلة في النهاية طبقة سميكة بل وهشة من الافكار المتضاربة، تموت بعد فترة لأنها غير مرتبطة بوجدان المثقفين المعاصرين أو تتساوى لديهم جميع الامور*[3]. وإن جاز لي التعقيب على هذه النقطة، فإنني أقول: إن حنفي قد بالغ بمدى الترابط والتداخل بين قوى التغيير العربية المتباينة، والدليل حالة الانقسام التي أصبحت ركيزة اساسية للتيارات العربية، فاليوم الإسلامي نفسه أصبح منقسماً على نفسه(سلفي دعوي، سلفي جهادي،

[1] حنفي، حسن، الجابري، محمد عابد، حوار المشرق والمغرب، ص9-10.
[2] حنفي، حسن، التراث والتجديد" موقفنا من التراث القديم"،ص19.
[3] حنفي، حسن، في الفكر الغربي المعاصر، ،ص9.

سلفي معتدل، صوفية زاهدة بدينها)، وحتى العلمانية لها نصيبها من الانقسامات الحادة(ليبرالي، اشتراكي، قومي عربي غير ديني)، وبالتالي الأمور تتجه نحو انقسام أعمق وأشمل.

والسؤال الأهم الذي يطرح نفسه: ما مدى أهمية اعطاء الفكر مساحة للتفكير قائمة على الاستقلال الذاتي في خضم المعلومات الهائلة التي اثقلت الواقع والفكر؟

يقول حنفي: إن " التعبير عن الواقع بأسلوب مباشر، يفهمه الواقع نفسه، ويؤثر فيه وليس بأسلوب العلية الخالصة، فلا يمكن مخاطبة الجماهير مثلاً عن مشاكل بمعدلات وصل إليها الباحث بالرياضة البحتة، أو نظرية المجموعات ، كما لا يمكن توعية الجماهير من أجل أن تكون السلطة الفعلية في يدها ، وتستطيع أخذ القرارات في صالحها دون توجيه نداء مباشر للجماهير"[1] والمغزى الهام من ذلك أن رسالة الفكر هي تحليل الواقع مباشرة وعرض الواقع نفسه، فالواقع فكر ولابد من الاتحاد به، والعيش معه، والحديث له، وبلغته، وبمستواه، لا القفز عليه، وهو حركة مستمرة تتجاوز ماضيه إلى حاضره ونقطة انطلاق لمستقبله نحو الامام. والسؤال الآن: ما هو مشروع حنفي النهضوي؟ وكيف تجلى؟

4- مشروع حنفي النهضوي:

إن الاستغراب حركة فكرية هدفت إلى مواجهة الغرب فكرياً، وإلى إقامة جسور تواصل ثقافي قد تأتي بالإفادة على الشرق المتعب لذا لابد لنا من تساؤلات نطرحها في هذا المقام:

- هل يمكن أن يكون هناك علم استغراب بالوتيرة نفسها التي وُجِدَ فيها الاستشراق؟

-هل الاستغراب قادر على الوقوف عند محطات حركة الاستشراق عموماً؟

لقد بدأت حركة الاستغراب، ومعها عناوين كثيرة من "تغريب – وموضوع دراسة – الأنا – الأنا الآخر – التقليد – نسخ النموذج الأوروبي" وكلها كانت تجليات للعلاقة بين الشرق والغرب، وفي الحقيقة إن تلك العناوين تحتاج وعي كبير لاستيعاب كل ما قيل وما سُيقال حيث "يتطلب البحث النقدي ..... وعياً تاماً بمناهج المستشرقين، بجوانبها السلبية والإيجابية، فضلاً عن الحذر من الوقوع في مزالق عديدة قد يقود إليها التطبيق غير الواعي لتلك المناهج، ولذلك .... إن الاستفادة من البحث الاستشراقي ينطوي على مخاطرة كبيرة، إن لم يكن مسبوقاً بوعي دقيق بمناهجه، وبموقف نقدي تفكيكي لعناصره البنائية"2.

فالاستغراب حسب تصوري لم يكن فقط حركة نقدية للاستشراق بل عمد إلى التعرف على علوم الغرب، ولأي درجة يمكن الاستفادة منها ومعرفة حقيقة الصورة النمطية التي نقلها المستشرقون عن الشرق إلى أوروبا وخاصة ما قبل الحرب العالمية الثانية، تلك الصورة حتى وإن كانت أدبية، ولكن وجدتُ لها مكانها في خطاب المستشرق البريطاني برنارد لويس السياسي، التي "تتمثل في قافلة من الإبل، تعبر الكثبان الرملية في الصحراء، والهياكل المعدنية الضخمة المقامة فوق الآبار البترولية لضخ النفط الأسود السميك"3.

إذا كان إدوارد قد أخذ على عاتقه تفكيك بنية الاستشراق بالإيضاح والنقد البناء فإن هناك مفكرين آخرين مارسوا نفس الدور مع تقديم مشروع نهضوي يتجسد بشخصية الإنسان العربي ودينه الإسلامي، بهدف الانتقال من الأنا التي تفكر إلى الأنا التي تثبت ذاتها ووجودها من موقعها وبالإمكانيات المتوافرة.

[1] حنفي، حسن، قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر، مصدر سابق، ص13.

[2] الجابري، صلاح، الاستشراق قراءة نقدية، ص163.

[3] ج. جيرفر، ديبورا، الشرق الأوسط المعاصر «محاولة للفهم»، ص23.

يقدم حنفي مشروعاً ينطلق فيه من واقع العالم العربي المعاصر، لإقامة مشروع نهضوي تُبعث فيها الأصالة والتجديد، وليس من منطلق تقليدي أو رجعي، وأوائل دعوات حنفي لمشروعه قوله: "أدعو إلى إبداع الأنا في مقابل تقليد الآخر، وإمكانية تحويل الآخر إلى موضوع للعلم بدلاً من أن يكون مصدراً للعلم"[1].

يضعنا قول حنفي هذا أمام ثنائيات بين العالم العربي والعالم الغربي، أي الأصالة مقابل التقليد، أي التراث القديم و التقليد الأوروبي من أجل النهضة، *وحسب الجابري إن اشكالية الأصالة والمعاصرة تطرح على الفكر العربي، كمشكلة اختيار بين نموذجين غربي سلاحه السياسية والاقتصاد والثقافة، وبين التراث، بوصفه قادراً على تقديم الجديد ولا حاجة للتقليد*[2].

أما حنفي فله رؤية أُخرى لها طابع خاص تختلف عن كل ما قيل في مسألة الأصالة والتجديد، وهي ذات مواقف ثلاث:

1- الموقف من التراث القديم.

2- الموقف من التراث الغربي.

3- الموقف من الواقع أو "النظرية التفسيرية".

"وتشير هذه المواقف الثلاث إلى جدل الأنا والآخر من واقع تاريخي محدد"[3].

فيما يخص الموقف الأول من التراث يدعو حنفي أن نضع الأنا مقابل التراث القديم للإسلام، والذي كانت فيه الأنا الإسلامية صاحبة مكانة عالمية، وعليها أن تبحث في التراث في إيجاد شيء فيه يساعد في التجديد والإبداع وأيضاً معرفة إذا كان وما زال التراث الإسلامي هو في الواقع أم أنه أصبح خارج الواقع وهل هناك علاقة تربط التراث بالإبداع؟

التراث عند حنفي ليس فقط كما يصوره الكثير بأنه فقط الموروث الإسلامي من فتوحات ونشر للدين وتعاليم دينية متوارثة، بل إنَّ التراث يشمل الإبداع الإسلامي في الترجمات والفلسفة ومحاولة إيجاد فلسفة عربية مخصوصة في فترة العصر الوسيط، ولذلك لا يمكن فقط القول إنَّ التراث شيء ديني وحسب، وبأن الدين قد أكمل دورته في مرحلة ما وتوقفت الدورة، وبذلك توقفت حركة الحضارة الإسلامية نحو الإبداع، لا بل على النقيض تماماً يرى حنفي بأن الدورة لم تتوقف لأنها لم تعد تقدم شيئاً جديداً، بل لابد من أن تستمر دورة التراث لتقودنا نحو التجديد، ذلك أن التراث هو نتاج حضارة مستمرة، وليست فقط دينية حتى وإن كان الدين الراعي الرسمي للكثير من إنجازاتها، *فالتراث عنده ليس قضية دينية فقط، لأنه ابتدأ من الدين بل هو قضية وطنية تتلمس حياة المواطنين وشقائهم وسعادتهم، وليس الدفاع عن التراث؛ لأنه ديني بل لابد من التعامل معه كقضية وطنية كما نتعامل مع أي شيء أخر من قبيل أثار قديمة أو مأثورات شعبية*[4].

حنفي لا يريد أن يفصل الدين عن التراث أو التقليل من دوره في التراث بل يجد أن في مصطلح التراث شمولية لكل ما ساعد الحضارة الإسلامية في السابق أي "الدين جزء من التراث، وليس التراث جزء من الدين"[5].

[1] حنفي، حسن، مقدمة في علم الاستغراب "التراث والتجديد موقفنا من التراث الغربي"، مصدر سابق، ص5.
[2] الجابري، محمد عابد، اشكاليات الفكر العربي المعاصر، ص15.
[3] المرجع السابق، ص12.
[4] حنفي، حسن، التراث والتجديد "موقفنا من التراث القديم"، مصدر سابق، ص23.
[5] المصدر السابق، نفس الصفحة.

بمعنى أن الأصالة تحتاج إلى الإبداع، وهذا الإبداع قراءة في التراث عموماً، وليس فقط القول: إنَّ الدين هو القادر على تحقيق المشروع القومي العربي الذي يرغب به حنفي، فالتراث قد أفاد بمرحلة سابقة،

والتجديد يتطلب أن نجعل التراث نقطة انطلاق نحو الابداع، وفي الوقت نفسه قادرٌ أن يتحمل المسؤوليات الموكلة إليه إذا استطاع أن يساهم في تغيير الواقع نحو الأفضل وقيمته تتجدد بإعادة بناء الإنسان والأرض.

أما الموقف الثاني الموقف من التراث الغربي إذا ما تم مقارنته حسب حنفي مع التراث الإسلامي فإن عمر التراث الغربي لا يتجاوز قرنين من الزمن، أما التراث الإسلامي فعمره 14 قرناً ومع ذلك هناك من وجد في التقليد شكلاً من أشكال الإبداع، وليس فقط الرجوع إلى التراث، ووجد الكثير أن تراث قرنان من الزمن، قادر على أن يغير واقع الحال وهو الموقف الثالث أي واقعنا أو النظرية التفسيرية ووقوعها بين موقفين التراث الغربي والتراث الإسلامي، ومع ذلك فإن الوعي القومي حسب حنفي بدأ يسير على قدمين "الأولى طويلة وقوية وربما رفيعة نظراً لأننا نجهل تراثنا القديم، والثانية قصيرة ومتورمة نظراً لانتشار الثقافة الغربية في وعيننا القومي لدرجة الانبهار والتبعية لها"[1].

فيما يخص الموقف من التراث الغربي يرى الكثير من المفكرين العرب أن حنفي قد بالغ بموقفه من التراث الغربي لدرجة إحداث قطيعة معه، والوقوع ضحيّةٍ عالمية ثقافية وتقليد أعمى وعمالة لكل ما هو غربي، فالطيب تيزيني المعجب بالتراث الغربي يرى بأن حنفي بالغ بالقطيعة ووقع بما وقع به غيره من المفكرين من رواد الحركة الاستغرابية حيث يقول: "إنَّ حنفي قد وقع بالفخ الاستشراقي الغربي في التمييز الأبستمولوجي بين ثقافتين متباينتين، فالغربية بما فيها من عقلانية وديموقراطية وإنسانية وبين ثقافة عربية اجترارية وما تحويها من معرفة وايديولوجيات معقدة"[2].

ومن الممكن أن يكون حنفي قد بالغ في تلك القطيعة ولعل السبب برأيي دائماً ما يقال: إنَّ الغرب تقدم بفضل ما وصله من التراث الإسلامي، ولكن لو لم يصل شيء من علوم الإسلام والعرب إليهم هل لن يكونوا وقتها قادرين على النهوض والتمدن وتأسيس حضارة ما زالت مستمرة إلى يومنا هذا؟

وفي الوقت نفسه أقف عند نقطة قالها حنفي: إنَّ التراث الإسلامي يمتد نحو 14 قرناً، وهل كان فيه العرب على مداها حضارة قائمة؟

برأيي توقفت الحضارة الإسلامية عن الإبداع منذ حملة نابليون على مصر وسورية، وبداية حركة الاستعمار، وتبقى أراء المفكرين العرب انطلاقاً من واقع العلاقة سواء التغريب أو التراث وما يريد إثباته حنفي إنَّ نقل "... الفكر ضار بالفكر المنقول؛ لأنه يفصله عن واقعه الخاص، وضار بالواقع الجديد الذي له نظريته الخاصة، والفكر ليس بالمتاع يُنقل من بيئة إلى أخرى بل هو المعبر النظري عن واقع خاص"[3].

وما يثير بالمشروع النهضوي لدى حنفي هو الثالوث الذي وضعه، وهو مكون من ثلاث أضلاع أحدها التراث الغربي، والآخر التراث العربي و الإسلامي، والآخر الواقع، ويتوسط المثلث الأنا، وبالتالي على الأنا أن تختار ما ينقلها إلى الواقع وهو أحد أطراف المثلث انطلاقاً من أحد الأضلاع المتبقية، والضلع الذي اختاره حنفي هو التراث نقطة انطلاق، وليس موقفاً رجعياً كما أرادت بعض التيارات الأصولية، وإنما انطلاقاً من انه أفادنا بمرحلة سابقة.

[1] حنفي، حسن، مقدمة في علم الاستغراب، المرجع السابق، ص15.

[2] تيزيني، طيب، من الاستشراق الغربي إلى الاستغراب المغربي، بحث في القراءة الجابرية للفكر العربي وفي آفاقها التاريخية، ص315-316.

[3] حنفي، حسن، التراث والتجديد، المرجع السابق، ص43.

إنَّ ما قدمه حنفي من الممكن أن يشكل مساراً مهماً سواء نحو التغيير، وإن كان هناك مبالغة في القطيعة مع الغرب، ولكن ما يهم أنه جعل من الاستغراب علماً ولم يكتفِ بأن يكون محاولة على مسار الفكر العربي وعلاقته بالاستشراق.

الخاتمة:

بعد كل ما قدمناه في البحث العلمي حول " الأصالة والتجديد في فكر حسن حنفي"، فوضعنا خاتمة بأهم النتائج التي أفضت إليها مقدمات البحث ونذكر منها:

– من الثابت أن الاستشراق قد مارس دوراً فاعلاً في مساعدة الغرب في التعرف على الشرق، من كونه فرع بحثي.

– وتوصلنا إلى مدى السعي لدى حنفي للتأسيس لعلم الاستغراب يكون قادراً على قراءة الاستشراق والاستفادة منه.

– ومن الجلي بمكان، أن نعرف الطمس التي تعرضت له الهوية العربية بفعل عوامل داخلية وخارجية، مما جعلها تعيش الاغتراب وهي في وطنها.

– ووصلنا لنقطة هامة، وهي أن الهوية بقيت أسيرة للثنائية "الغرب واللاغرب".

– كذلك توصلنا إلى المدى المبالغ فيه الذي اعطاه حنفي للاستغراب، وبالكاد نكاد نجزم أنه لم يقدم النتائج المرجوة في علاقته مع الاستشراق.

– وتبين لنا أن حنفي أراد نقل الفكر العربي من مجرد التفكير وإثبات وجوده، إلى حالة أكثر نهوضاً، وعدم الاكتفاء فقط بالصورة الجميلة التي نتباها بها في أي نقاش حول التقدم والتفاخر بأننا كُنا أصحاب حضارة.

– وتبين لنا أن مشروع حنفي، وبالرغم من أهميته حين جعل التراث نقطة انطلاق، وإحداث تواصل مع الأخر، إلا أنه لم يستطع أن يحقق ما هدف إليه.

– وأخيراً، وبعد الاطلاع على ما كتبه حنفي في إطار الأصالة والتجديد، فإن فالفكر العربي يلزمه ثورة نقدية من داخله، ومفكريه أكثر وعياً بمقاصده لو أصروا على أن لا يبقوا مغلقي الأعين، ومنقادين إلى مجموعة اجتهادات وأراء تهكمية، لن تغير من واقع الحال.

المصادر والمراجع

1- المصادر:

1- حنفي، حسن، التراث والتجديد" موقفنا من التراث القديم"، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 1992،ط4.

2-حنفي، حسن، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2012.

3-حنفي، حسن، في الفكر الغربي المعاصر، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 1990،ط4.

4-حنفي، حسن، في الفكر العربي المعاصر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1990،ط4.

5-حنفي، حسن، قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر، دار التنوير، بيروت، 1983،ط2.

6-حنفي، حسن، مقدمة في علم الاستغراب "التراث والتجديد موقفنا من التراث الغربي"، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.

- المراجع:

1- الجابري، صلاح، الاستشراق قراءة نقدية، دار الأوائل، دمشق، 2009م.
2- الجابري، محمد عابد، اشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1989.
3- القصيبي، غازي، العولمة والهوية الوطنية" مقالات". دار العبيكان، 2002، ط2.
4- تيزيني، طيب، من الاستشراق الغربي إلى الاستغراب المغربي، بحث في القراءة الجابرية للفكر العربي وفي آفاقها التاريخية، دار الذاكرة، حمص،1996.
5- جيرفر، ديبورا، الشرق الأوسط المعاصر «محاولة للفهم»، ت: أحمد عبد الحميد أحمد، المشروع القومي للترجمة، القاهرة
6- حنفي، حسن، الجابري، محمد عابد، حوار المشرق والمغرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،1990.